

المرجعيات الجمالية لأدب الرحلة العربي القديم

من الجغرافيا العلمية إلى الخطاب الأدبي

The aesthetic origins of ancient Arab travel literature

From scientific geography to literary discourse.

د. كمال بولعسل ♥

تاريخ القبول: 2021-12-21

تاريخ الاستلام: 2019-11-17

ملخص: يعالج هذا المقال ظاهرة فريدة من نوعها في التراث العربي، والمتمثلة في حركة تأسيس الجغرافيا العلمية (الجغرافيا الفلكية، الرياضية والوصفية) وتاريخ انتقال مصطلحاتها ومفاهيمها إلى نصوص أدب الرحلة، حيث نلاحظ في تراثنا العربي تفاعلا معرفيا كبيرا بين الجغرافيا العلمية ونصوص أدب الرحلة، حيث أسهمت الآلة الاصطلاحية التي أسستها الجغرافيا الفلكية والرياضية العربية في صياغة أهم الحساسيات الجمالية والقيم الأسلوبية والبنوية لأدب الرحلة.

كلمات مفتاحية: أدب الرحلة؛ الأدب الجغرافي؛ الجغرافيا العلمية؛ الجغرافيا الفلكية؛ الجغرافيا الرياضية؛ الجغرافيا الوصفية؛ رسائل المعاني.

Abstract: This article discusses a remarkable phenomenon in Arab heritage, represented in the movement of the founding of scientific geography (astronomical, mathematical and descriptive geography) and the history of the transfer of its terms and concepts to the texts of the travel literature, where we note in our Arab heritage a great knowledge interaction between scientific geography and texts of literature. The terminology founded by Arab astronomical and mathematics geography, contributed to the formulation of the most important aesthetic sensitivities and the stylistic and structural values of Arabic travel literature.

♥ جامعة الصديق بن يحيى، جيجل، الجزائر، بريد الكتروني: Kamel.boulassel@yahoo.fr
(المؤلف المرسل).

Keywords: Travel Literature; Scientific Geography; Astronomical Geography; Mathematical Geography; Descriptive Geography; Dictionaries of meanings.

1. **مقدمة:** لقد نشأ أدب الرحلة العربي القديم نشأة جنينية، تشبه نشأة الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، حيث دعت ظروف توسع بلاد الإسلام إلى تعاظم المعرفة الجغرافية وما ارتبط بها من حاجات حضارية، سياسية، دينية واقتصادية، حيث ظهرت على إثرها كتب الممالك والمسالك التي أنتجت حاجات حساب الجزية والخراج في كل مصر، ورسم مراحل السفر من وإلى بلاد الإسلام وظهرت أيضا كتب الجغرافيا الفلكية، الرياضية والوصفية التي تعتبر امتدادا طبيعيا لعلم الأنواء ورسائل المعاني في وصف الأرض وموجوداتها. كما ظهرت رحلات الحج التي أسهمت في نقل صورة بلاد الإسلام في مختلف عصور الحضارة الإسلامية في أدق تفاصيلها الاجتماعية، التاريخية والأنثروبولوجية. لكن المثير للاهتمام عند الاقتراب من تاريخ تشكل نصوص وخطابات أدب الرحلة العربي القديم هو الإسهام الكبير للعلوم الجغرافية الرصينة في تأسيس الأنساق الجمالية الداخلة في تشكيل النص الرحلي، وذلك من خلال تحول كثير من الفرضيات الجغرافية والمقولات الفلكية ومفاهيم الجغرافيا الوصفية إلى ثوابت جمالية، تتكرر في أغلب النصوص الجغرافية العربية خلال القرون الوسطى الإسلامية. في هذا المقال سنحلل صيرورة الانتقال المعرفي والجمالي من الجغرافيا الفلكية إلى الجغرافيا الأدبية، من خلال الوقوف على الأصول الرحمية بين المقولات الجغرافية العلمية والأنساق الجمالية والدلالية لأدب الرحلة العربي القديم.

2. **أدب الرحلة العربي القديم: الأصول العلمية:** لم ينشأ أدب الرحلة العربي القديم نشأة أدبية، بل ارتبطت بدايات كتابة الرحلة وتدوينها بمجموعة من التخصصات العلمية؛ يأتي على رأسها الجغرافيا العلمية. لكن الجغرافيا لم تكن التخصص الوحيد المسؤول عن تشكيل القيم البنيوية والجمالية والحفريات المعرفية لأدب الرحلة العربي القديم، لذلك ارتأينا أن نعرض هنا أهم الروافد العلمية التي أسهمت في الإنتاج التاريخي لهذا النص. لكن التركيز الأكبر سيكون على تأثير علم

الجغرافيا، لأنّ هذا العلم زود نصوص الرحلة بأهم المصطلحات التي تحولت مع مرور الوقت إلى مقولات جمالية ومعرفية صاغت أهم الأنساق الفكرية والحساسيات الجمالية لعصور متلاحقة من الرحلات. يشكّل موضوع الجغرافيا في أدب الرحلة العربي القديم حالة فريدة من نوعها كونه نشأ نشوءاً جنينياً من رحم اجتمعت فيه مجموعة من الظروف التاريخية واللغوية والحضارية. يمكن القول أنّ الفكر الجغرافي العربي المحمول في الفضاءات الجغرافية لنصوص الرحلة العربية، هو في الحقيقة امتزاج لمرجعيات علمية ثلاث هي:

➤ كتب فضائل المدن والبلدان التي ظهرت في العصر الأموي تحت تأثير الموجهات الجغرافية / الدينية للأحاديث النبوية الشريفة؛

➤ كتب اللغويين في موضوع (معاني) الجغرافيا، أو ما كان يسمّى برسائل المعاني والألفاظ (معاجم صغيرة). وقد ظهرت في نفس فترة ظهور كتب الفضائل وتماهت معها في كثير من الأحيان. وكما هو معلوم في تاريخ التأليف المعجمي العربي؛ "فكتب المعاني أو الموضوعات حلقة مفصلية في تاريخ التأليف العربي (المعجمي واللغوي خاصة) دأبت مع مجيء عصور التدوين العربية على جمع "المفردات تحت موضوع يربطها، وكان أكثر هذه المواضيع مما يقع تحت بصر العربي وسمعه"¹. بمعنى أنّها اتبعت مسالك الموضوعات قوية الحضور. ولما كان المعطى الجغرافي وما يحويه من موجودات فيزيائية وطبيعية موضوعاً ناتئاً عند العرب، فقد كان استحوذه على رسائل المعاني أمراً مبرراً؛

➤ تنمّية الفكر الجغرافي وذلك بإسهامات الجغرافية الفلكية والرياضية والوصفية والكوزموغرافيا والمقتربة بشكل مباشر بأدب الرحلة؛

➤ بالإضافة إلى الملايسات التاريخية للحضارة العربية القديمة التي وسعت الأفق الجغرافي ومداركه بفعل الفتوحات الإسلامية، والحاجات الطارئة على هذا التوسع كرسم طرق المسالك بين الأمم المفتوحة (الممالك) وطرق البريد والحجيج وحساب الجزية والخراج تبعاً لأوضاع كل مصر... الخ. وبالتالي فإنّ الوعي بالامتداد الكوني عند العرب و"اتساع أفقهم الجغرافي كان نتيجة لاتساع نطاق الحضارة الإسلامية"².

وعن هذه الأصول الرّحميّة أخذ أدب الرّحلة العربيّة القديم قيمه الموضوعيّة وأساليبه النّصيّة والجماليّة، حيث تكلمت فيه وترسبت قوالب جغرافيّة مكرورة بين الجغرافيين والرّحالة على امتداد قرون طويلة حتى " غلب على الأدب العربي موقف معين من الإنتاج الأدبي للسلف يتفق أحيانا مع الفكرة المعاصرة للسرقة الأدبيّة"³. وقد امتد هذا الأمر قرونا طويلة ابتداء من القرن الرّابع للهجرة. ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال استعراض هذه الأصول ومعالقتها مع نصوص الرّحلة العربيّة القديمة.

1.2. رسائل المعاني وكتب الفضائل: يعد هذا التّمط من التّكوين العربي القديم

أصلا جنينيا للأدب الجغرافي العربي، حيث استأثر بإدراج كثير من الموضوعات الجغرافيّة بين " القرنين الثّاني والثّالث للهجرة. حيث بدأ في الظّهور نمط من الأدب الجغرافي يقدمه لغويون في الغالب. مهدوا لا شك لنمو جغرافيّة وصفيّة"⁴. وضمن هذا الأصل نلاحظ أن كتب الرّحلة العربيّة القديمة تتميز بميزة أسلوبيّة وموضوعيّة أساسيّة هي تلبسها بالمنهج المعجمي في التّأليف. وليس القصد هنا أننا نتحدث عن المعاجم الجغرافيّة الكبرى التي شاعت بعد القرن السّابع للهجرة كمعجم ياقوت الحموي أو التّويري أو القلقشندي، التي قسّمت إلى "ثمانية وعشرين كتابا على عدد حروف المعجم"⁵ وإنّما المقصود هنا غير ذلك، حيث نزع أغلب كتاب الرّحلة العربيّة القديمة إلى توزيع المادة الجغرافيّة وفق منهج معجمي، يأخذ مواد ترتيبه الأساسيّة من أسماء الأماكن، ثم ينبري لوصفها وتعريفها. ليس وفق ترتيبها المعجمي وإنّما وفق انتمائها لإقليم جغرافي معين ضمن الأقاليم السّبعة للأرض (توزيع الأقاليم السّبعة فكرة مأخوذة من الجغرافيا الفكيّة وهي أيضا أصل رحمي لماهيّة الجغرافيا العربيّة، سنتعرض لها في حينه) وكثيرا ما يصطبغ هذا الوصف، علاوة على النّعوت الجغرافيّة المعروفة بنعوت وصفات أخلاقيّة أو عقائديّة. يقول القزويني في وصفه لدمشق: "وأهل دمشق أحسن النّاس خُلُقًا وخُلُقًا وزيّا، وأمّيلهم إلى اللهو واللّعب"⁶. ويقول في نيسبور: "مدينة من مدن خراسان، ذات فضائل حسنة وعمارة، كثيرة الخيرات والفواكه والتّمرات، جامعة لأنواع المسرات وعتبة الشّرق"⁷. ويمضي على هذه الشّاكلة يرتب معجميا مادته ويوالي أسماء الأماكن كأنّها معجم للألفاظ. ثم يشرع في شرحها جغرافيا تارة، يضيف عليها طابع الفضائل تارة أخرى وينزع في بعض الأحيان إلى الوصف الكوزموغرافي

العام. وقد دأب على هذا النموذج الكتابي في العرض للفضاء الجغرافي أغلب الجغرافيين والرحالة العرب. حتى أولئك الذين يمتلكون الهيكل السردى البنوي لكتابة الرحلة وفق مسار الارتحال عند الجغرافيين الرحالة، فكثيرا ما يوزعون رحلاتهم وفق هذا النموذج المعجمي كابن جبير أو الغرناطي وغيرهم كثير. لكن ما أصل هذا المنهج الجغرافي في تشكيل النصوص الرحلية والجغرافية العربية القديمة؟

في غياب مناهج الكتابة والتأليف وأسس التدوين والوعي بأجناس وأنماط المعارف والفنون القولية، استقرت أغلب الكتب العربية التي دونت في عصر التدوين الأول وبعده على النسق المعجمي في التأليف الذي ظهر في أحضان العلوم اللغوية التي انبثقت عن حركة جمع اللغة وتدوينها لأجل غايات لغوية، دينية؛ كوضع علوم اللغة لصيانة العربية ومن ثم صيانة النصوص المقدسة "من شوائب العجمة والافتعال"⁸. التي فشت نتيجة الظروف الحضارية الطارئة التي صاحبت الفتوحات الإسلامية كدخول الأعاجم الذين أفسدوا العربية (لغويا)، وكان أيدانا بفساد الدين والنصوص المقدسة. وبعيدا عن الخطط المنهجية في التدوين التي وضعها علم المعاجم العربي، لا نجد منهجا في الكتابة. وأغلب الكتب التي دونت بعيدا عن التأليف المعجمي وقعت في نموذج الاستطراد (كما هو سائد في فترة الجاحظ) حيث إنّ "القاعدة المتوازنة في التأليف الأدبي هي جمع خليط من النواذر التي يربط بعضها ببعض رباط واه ضعيف وقد سادت هذه القاعدة جميع كتب الأدب الإسلامي"⁹. وفي أحسن الأحوال كان التأليف يستند إلى التوزيع الموضوعي للأبواب الذي لا يقدم دائما مبررات منهجية؛ كمبدأ التطور العضوي لحركة الأفكار في الكتاب. بينما فضل بعض الكتاب الاستناد إلى فكرة التوزيع المعجمي، كما هو حاصل في كتب الموسوعات ككتاب الفهرست لابن النديم. ولم ينج من هذا طبعاً أدب الرحلة الذي استلهم طريقة التأليف المعجمي في توزيع مادة الكتاب. والذي بلغ أوجه مع ظهور الموسوعات الجغرافية الكبرى التي يأتي على رأسها معجم البلدان لياقوت الحموي، ثم تلاها "أكبر موسوعات القرن الرابع عشر ميلادي وهما موسوعتا النويري والعمري"¹⁰.

الأمر لا يتعلق فقط بالتأثير المباشر في منهج كتب الرحلة الذي لعبته النماذج الأساسية للمعاجم العربية اللغوية الناضجة، التي ظهرت في زمن مبكر، والذي سبق

التّضج التّام للتأليف الجغرافي العربي. بل يتعلق أيضا بانبثاق الفكر الجغرافي نفسه في الفكر العربي، حيث إنّ المعين الأوّل كان مع ازدهار تأليف رسائل المعاني؛ وهي كتب ذات صبغة معجميّة كانت تدون "حسب الموضوعات، بعضها تناول الإنسان وأدواته كخلق الإنسان، والأخيّة والبيوت، والدّارات، والأثواب، والدّلّو [...] وبعضها تناول الحيوانات والحشرات كالوحوش والنّحل والجراد".¹¹ وقد برع في هذه الحلقة الأولى من التّأليف المعجمي رواد وضعوا العلوم اللغويّة العربيّة من أمثال: "النّضر بن شميل، وقطرب، وأبو عبيدة، وأبو زيد، والأصمعي، وأبو حاتم السّجستاني"¹².

وقد غلب على كتب هؤلاء استقصاء الموجودات الحسيّة في شبه جزيرة العرب وذلك تحت تأثير "واقعيّة حسيّة ماديّة انبثقت من واقع حياتهم، فصبغت هذه الحياة حتى بعد أن أشرق فيهم دين جديد وبقيت فيهم هذه الواقعيّة الحسيّة زمنا طويلا"¹³. وإتباعا لهذا المسلك المادي الواقعي، نهلت كتب هؤلاء من المادة اللغويّة الضّخمة التي جمعت في عصر الرّحلة إلى البوادي (الرّحلة مرة أخرى) لجمع اللغة لغرض الاحتجاج بها واستنباط قواعد اللغة العربيّة. ليس غريبا أن تظهر في هذا الوقت المبكر (عصر الاحتجاج؛ حوالي منتصف القرن الثّاني للهجرة) كتب ذات طابع جغرافي من أمثلة ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي: "وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربيّة والمنازل البدويّة فطبقة أهل الأدب، وهم أبو سعيد الأصمعي ظفّرت به رواية لابن دريد عن عبد الرّحمان عن عمه، وأبو عبيد السّكوني، والحسن بن أحمد الهمداني، له كتاب جزيرة العرب، وأبو الأشعث الكندي في جبال تهامة، وأبو سعيد السّيرافي، بلغني أنّ له كتابا في جزيرة العرب وأبو محمّد الأسود الغنّدي، له كتاب في مياه العرب، وأبو زياد الكلابي [...] وهشام بن محمّد الكلبي وقفت له على كتاب سماه اشتقاق البلدان. وأبو القاسم الرّمخسري، له كتاب لطيف في ذلك..."¹⁴. بيد أنّ هذا النّوع من الكتب "الجغرافيّة" التّبس بوضع العلوم اللغويّة أكثر من التّباسه بالجغرافيا أو أدب الرّحلة، حيث عدّ "من ضوابط اللغوي ولوازمه وشواهد النّحوي ودعائمه".¹⁵ كما أنّه "من العسير علينا أن نفترض أنّ مادة هذه الكتب قد تجاوزت نطاق الجزيرة العربيّة"¹⁶ وموجوداتها الجغرافيّة. وتفسير هذا الانزواء في أماكن الجزيرة العربيّة بديهي؛ إذ أنّ المعلومات الجغرافيّة لم تبدأ بالتّدفق بعد من

الأصقاع المفتوحة، لحدثا عهد فتحها أو لأنّ الأوضاع لم تستقر بها بعد. وكذلك بسبب الشروط الزمكانيّة التي وضعت لجمع اللغة زمن عصر الاحتجاج. وقد غذى هذا النمط في تدوين اللغة استنادا إلى الموضوع اللغوي. وإلى قرون متأخرة من الحضارة العربيّة القديمة، نظام ومناهج إدراج الجغرافيا في النصوص الرحليّة وفي الأدب الجغرافي العربي عامّة. علاوة على هذه المعطيات الحضاريّة، يضاف إلى هذا النمط من تأليف أنّ رسائل المعاني لم يكن همها دائما استقصاء المواضيع الجغرافيّة من أجل الموضوع أو من أجل الموجهات اللغويّة، وإنّما قد نجد أنّها أفردت لإحصاء فضائل "ومناقب المدن المختلفة استنادا إلى الأحاديث النبويّة"¹⁷، التي أثنى فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) على مدن وبقاع بعينها أو عرض لها سياق حديث ما¹⁸. وهو ما يسمى بكتب "الفضائل"؛ وهي كتب شاعت تحت تأثير الوازع الديني، وكانت تتخذ كسند أصيل في وصف فضائل وشمال الأماكن (خاصّة المقدسة منها). لكنّها سرعان ما تخلّصت من هذه المركزيّة الدينيّة، وأصبحت ترسل أحكاما أخلاقيّة وأنثروبولوجيّة عامّة على الأماكن المختلفة. تكلس بعضها وأصبح مكرورا عند نسل الرحالة تباعا بحيث يصعب ردّها لشخص بعينه أو لمرجعيّة دينيّة أو عقائديّة محدّدة.

يقول اليعقوبي في وصف بغداد: "وإنّما ابتدأت بالعراق لأنّها وسط الدّنيا وسرة الأرض. وذكّرت بغداد لأنّها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة، وكثرة مياه، وصحة هواء، ولأنّه سكّنها من أصناف النّاس، وأهل الأمصار والكور، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصيّة والدانيّة، وآثرها جميع أهل الأفاق على أوطانهم، فليس من أهل بلد إلّا ولهم فيها محلّة، ومتجر ومتصرف فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدّنيا"¹⁹.

2.2. من المصطلح الجغرافي إلى جماليات أدب الرحلة: من أسباب التحوير

النمطي، في الفضاء الجغرافي في أدب الرحلة العربي القديم، مجموعة المصطلحات والمفاهيم العلميّة التي أرسنها الجغرافيا الفلكيّة والرياضيّة العربيّة التي نشأت في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلادي نتيجة اتصالهم بالعلوم الهنديّة أولا ثم اليونانيّة بعد ذلك²⁰. خاصّة كتب إقليدس وبطليموس. فأفرزت امتزاجا متميزا بين

الفكر الجغرافي لثلاث حضارات كبرى سابقة على الحضارة العربية الإسلامية، هي الحضارات الفارسية والهندية واليونانية. وقد كان لهذه الأخيرة تأثير كبير، خاصة بعد جهود المأمون وبيت الحكمة الذي أنشأه، حيث نقل التراث اليوناني عن الحضارة البيزنطية وتمت ترجمة كثير من الفكر الجغرافي، خاصة كتب بطليموس وإقليدس.²¹ لكن ما لبث هذا النمط من الأدب الجغرافي أن صار عربي الهوية بفضل فلكيين عرب أفذاذ من أمثال عبد الرحمن الصوفي (ت 376هـ) ومحمد الفرابي (ت 339هـ).²¹ كما سار على درب التأصيل هذا جغرافيون آخرون منهم، الفزاري، الفرغاني الخوارزمي، البتاني، وأبو زيد البلخي وابن يونس... الخ. وهم الأعلام الأوائل للجغرافيا الفلكية والرياضية العربية. غير أن السبق في هذا التوجه كان في الحقيقة للساسانيين المنجمين (الأراش) وذلك لارتباط العباسيين، دون الأمويين بالحضارة الفارسية التي تبنت واحتضنت الثورة العباسية، وأطلقت خروجها من ديار الساسانيين. بالإضافة إلى العلوم الفلكية للهند ويأتي على رأسها تأثير الكتاب الفلكي الشهير (السند هند). إن ارتباط الفكر الجغرافي العربي بأصول خارجية، آتية من حضارات أخرى فكرة تاريخية شائعة بين المؤرخين وعلماء الحضارات. ولا أحد يماري فيها حيث كان العرب "متأثرين إلى درجة كبيرة (خاصة) بالمعرفة اليونانية الرومانية"²². لكن السؤال المطروح هنا هو حول أصالة هذا الفكر الجغرافي العربي، بمعنى؛ هل التراث الجغرافي العربي الذي استقر بين أيدينا اليوم في مصنفات الرحالة والجغرافيين تابع بالكلية لهذه الحضارات المذكورة آنفا؟

في الحقيقة إن هذا السؤال مهم بالنسبة للطرح الذي انطلقنا منه، وهو البحث في الجذور العائلية وصلات الدم التي تربط الفضاء الجغرافي كما نشأ تاريخيا في الفكر العربي القديم وأساليبه النصية والدلالية داخل نصوص الرحلة العربية. لقد كان "العيب الأساسي للأدب الجغرافي العربي هو في خضوعه للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل بالرغم من أن تجارب العرب العملية كثيرا ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها بل وحتى صرف النظر عنها"²³. كما أنه يمكن القول بالنسبة إلينا اليوم، وقد اتصلت معالم التطور التصاعدي للأدب الجغرافي، خاصة بعد العثور على مخطوطات جغرافية هامة كانت ضائعة في وقت سابق، أن التأثير الخارجي على

الفكر الجغرافي العربي رغم قوته لا ينقص من أصالته شيء. وذلك لسبب وجيه هو أنّ المعارف الجغرافية الأجنبية، خاصة تلك التي خالطت الفكر الجغرافي العربي لامسته وهو في حركة تطور طبيعي، حيث لم تكن سببا في انبثاقه، على اعتبار أنّ الأدب الجغرافي العربي -كما أسلفنا- انبثق من حركة التدوين اللغوي (رسائل المعاني وكتب الفضائل). بالإضافة إلى انتسابه إلى أصل عربي وهو علم الأنواء الذي دونت فيه كتب عربية كثيرة "التي اشتملت على أشقات من الملاحظات عن الطقس وظواهر الطبيعة ومنازل القمر، متبوعة بتعليقات لغوية وغير لغوية، وتمضي هذه السلسلة من الكتب متكاثرة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة"²⁴. وظهر هذا العلم "يرجع إلى ما قبل الإسلام"²⁵ ثم واصل تطوره التصاعدي مع مجيء الإسلام وازداد توهجه مع مخالطته للنظريات الفلكية اليونانية والهندية والفارسية حتى أصبح "جزء من التراث الجغرافي العالمي"²⁶. كما أنّ الفكر الجغرافي العربي لم يكن نسخة مقلدة عن النظريات القادمة من الخارج، بل تلبس بخصوصيات الظروف العربية، على اعتبار أنّ أغلب العلوم العربية التي ظهرت بعد مجيء الإسلام كلها ظهرت لخدمة الأغراض الدينية والشعرية وما ارتبط بها من حاجات حضارية، كحساب مسافات المسالك ورسمها وتحديد مواقع البلدان (الممالك)، وحساب مواقيت مطالع القمر وضبط المسافات والاتجاهات بالنسبة للقبلة وحساب الجزية والخراج باعتبار خصوصيات كل مصر. وعليه فقد ازدهرت عند العرب الجهود الجغرافية والفلكية فأنشئت المراصد (كمركز فرغانة، بأذربيجان حاليا) وانتشر وضع "الريجات"،²⁷ وعلم الخرائط، وامتزجت النظريات الأجنبية بالمعطيات الحضارية والدينية للبيئة العربية الإسلامية، فشكّلت لنا عتبات جغرافية أساسية، تداولتها كتب الجغرافيا العربية، سواء أكانت رحلات جغرافية مدونة (أدب الرحلة) أم كتب جغرافية صرفه وقفت لغايات علمية. قبل الحديث عن أهم المصطلحات الجغرافية التي رشحت من التراث الجغرافي الفلكي والرياضي العربي واستقرت في نصوص أدب الرحلة، ننوه إلى أنّ الفكر الجغرافي الفلكي الذي ظهر في القرن الثاني للهجرة، وازدهر بفعل علم الأنواء العربي والحاجات الدينية والحضارية لدولة الإسلام الناشئة، بالإضافة إلى استدعاء المصادر الخارجية، بدأ في التراجع ابتداء من القرن الرابع للهجرة، ليفتح المجال لما

يسمى بالجغرافيا الوصفية التي " تمثل دور النَّصِّج في الجغرافية العربية"²⁸. والتي تتولى مهمة أساسية هي محاولة رسم مسالك وممالك الأرض، مع تقديم أوصاف متنوعة لمختلف الموجودات والظواهر الإنسانية والطبيعية السائدة فيها (أوصاف جغرافية طبيعية، مناخية، رصد المخلوقات في البر والبحر، مع تحديد القيم الدينية والاجتماعية والأنثروبولوجية والاقتصادية، والسياسية المرتبطة بمن يقطن تلك الممالك). وكان ذلك يتم إما بالمخالطة المباشرة لهذه الممالك عن طريق الرحلة، أو بجمع المادة الجغرافية من كتب المعاصرين أو الأوائل، كما فعل مثلاً ابن خردادبة (205هـ - 280هـ) في كتابه "المسالك والممالك"، الذي لم يكن رحالة، لكنه جمع المادة الجغرافية ما استطاع من مصادر مختلفة بالسَّماع أو الإطلاع على كتب الأوائل. وكما فعل أيضاً معاصره اليعقوبي (توفي سنة 284 حسب ياقوت الحموي) الذي كان رحالة على خلاف ابن خردادبة. فتوزعت مادته الجغرافية بين المشاهدة "حيث كان حريصاً على تدوين ملاحظات عن الجغرافية الطبيعية وعن المجتمعات التي تعرف إليها"²⁹ بالإضافة إلى السَّماع والنقل من الكتب. وبناء على هذا، فلا غرو أن نقف على مصطلحات هامة للفكر الفلكي الجغرافي الذي تلا القرنين الثاني والثالث للهجرة، حيث اصطبغت كل الكتب الجغرافية بالمصطلحات والمفاهيم الجغرافية الكبرى التي ازدهرت في هذا الزمن المبكر للجغرافيا والرحلة العربية على السواء. ويأتي على رأس هذه المصطلحات، الجهد الجغرافي الدائم عند أغلب الرحالة والجغرافيين العرب في كل العصور تقريباً لرسم "صورة الأرض". وهي فكرة جوهرية كانت سائدة في الفكر اليوناني خاصة في أعمال باطليميوس. كما يمكن أن نعثر عليها أيضاً عند الجغرافيين العرب الأوائل، كالخوارزمي الذي سمي مصنفه الجغرافي بمنهج وطموح هذا الكتاب "صورة الأرض". وهي الترجمة المعهودة في ذلك العصر للفظ «جغرافيا» اليوناني.³⁰ والمذهل في الأمر أننا نعثر عند اللغويين الأوائل زمن رسائل المعاني على هذا الطموح في رسم صورة الأرض والسماء، كما ورد في كتاب الأصمعي "رسالة في صفة الأرض والسماء". ولا أعتقد أن هناك ما يفسر هذا النزوع نحو الشمول والانسحاب الكلي على صورة الأرض في الجغرافية العربية سوى الحوافز المعرفية (التأملية) الجغرافية. خاصة ما ورد في النص القرآني الذي جاء بمقولات

(آيات) جغرافية لم تكن سائدة في الفكر العربي خاصة عن الاتساع والامتداد، حيث زخر القرآن الكريم بمؤشرات جغرافية مزقت شرنقة جغرافية شبه جزيرة العربية، ونَبَّهت لوجود عالم وأقوام خلف أسوار بلاد العرب. بالإضافة إلى العالم الغيبي الذي طغى بفكرته عن تلاشي الحدود الزمنية والجغرافية، والتي ترجمتها خاصة فكرة الدنيا والآخرة، السموات السبع، من الأرض مثلهن، الجنة والنار، العرش سدة المنتهى الإسراء والمعراج، عوالم الجن... الخ. ولعل هذا التوجه العلمي واللغوي في رسم صورة الأرض، أريد اختزاله بشكل مكثف وفعال من خلال ازدهار علم الخرائط (المصور الجغرافي عند أهل المشرق العربي والطبلة عند أهل المغرب) كما فعل الجغرافيون برسمهم لخارطة المأمون حيث صوروا " فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن. وغير ذلك"³¹. لتتعرف على الطمّوح الجغرافي الشمولي في الانسحاب على الدنيا ورسم صورتها والذي أصبح قاسما مشتركا بين كل الرحالة والجغرافيين العرب (إلا قلة قليلة منهم اكتفى بجهة جغرافية بعينها أو إقليم فرد. أو أنه انكفأ على مدينة من المدن، أو تعلق بجغرافية الأماكن المقدسة) نورد هذا النص لابن حوقل (توفي سنة 367 هـ)، وهو رحالة وجغرافي من القرن الرابع الهجري، يعلن عن طمّوح كتابه الموسوم بعنوان: "صورة الأرض" في مقدّمة الكتاب: " وقد عملت له كتابي هذا بصفة أشكال الأرض، ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران، من جميع بلاد الإسلام، بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها، ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض لأنّ الصورة الهندية بالقوازيان، وإن كانت صحيحة فكثيرة التخليط، وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويرا وشكلا يحكي وضع ذلك الإقليم، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع، وما في أضعافها من المدن والأصقاع..."³². وهذه الفكرة في الوصف الشمولي لصورة الأرض، مهمة جدا بالنسبة لكل دراسة نقدية تحاول الاقتراب من أساليب الاشتغال الجمالي والمعرفي الجغرافي في أدب الرحلة، لأنها الموجه الأساسي لهذا الأدب، الذي تنتزع فيه المكونات الأسلوبية والقيمات والأنساق الموضوعية للرحلة. ترتبط بهذه المقولة الجغرافية، وبشكل مباشر، مقولة محورية أيضا في أدب الرحلة العربي القديم، ولها نفس الأصل وهو الجغرافية الفلكية، وهي فكرة رسم صورة

الأرض وفق توزيعها على سبعة أقاليم "وهذا التقسيم وضعه اليونان على أساس الطول النسبي للنهار والليل أو ميل الشمس على خط الاستواء (باليونانية *klima* وجمعها *kimata*)"³³. هذا المبدأ الجغرافي أصبح بالنسبة للجغرافية العربية إجراء معرفياً "مقدساً" في قياس صورة العالم وحساب امتدادها وأطوالها. ومناخها وبالتالي توزيع المعمور منها والخالى من العمارة. كما أنه اتخذ في بداية استخدامه لأجل غايات الجغرافية الفلكية والرياضية، أبعاداً علمية صرفة كحساب ميل الشمس أو الطول النسبي لليل والنهار على خط الاستواء أو حساب خط الزوال المقترن بمصطلح "قبة الأرض" أو "الأرين"³⁴. وهذه النظرية تقوم على مبدأ افتراض خط طول لاحتساب الأطوال الجغرافية من الشرق والغرب والشمال والجنوب انطلاقاً من هذا لخط. وقد حدد الهنود الأرين بالخط الذي يعبر لانكا (جزيرة سرينديب أو سيلان عند العرب). لكن فيما بعد، في عصور تراجع الصرامة العلمية للأدب الجغرافي، تمخضت عنه بعض المقولات الحفرية حول الجغرافية والتوزيع الحضاري للمعمور من الأرض حيث ظن العرب مثلاً أن المعمور من الأرض هو ربعها فقط، وذلك في النصف الشمالي منها، وهو ما يعرف باسم "الربع المعمور" كما اعتنقوا الرأي القائل باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة أو الشديدة البرودة. وقد استقر هذا الاعتقاد في توزيع المعمور من الأرض وفق نظرية الأقاليم السبعة. حسب درجات الاعتدال، البرودة أو الحرارة في أغلب الرحلات العربية. وفي الحقيقة إن هذه المعتقدات الجغرافية/العمرانية، الحضارية، ترتبط أيضاً في العمق بنظرية الكيوف الطبيعية عند اليونان، والتي انتقلت ضمن ما انتقل من الإرث اليوناني إلى الفكر العربي. يقول المقدسي عن الإقليم السابع: "وهو الذي ليس فيه عمارة كثيرة، فإنما هو في المشرق غياض وجبال تأوي إليها طوائف من الترك المتوحشين [...] وجميع ما يمتد العمران فيها وراءه إلى حدود عرض ست وستين درجة وربع وسدس. كما قلنا قبل. ثم ما بعد ذلك إلى تمام التسعين خراب، لا يسكن لأهل الأقاليم ولا يعيش فيه حيوان معهود وذلك لتراكم الثلوج عليه، وتراكم الضباب ويُبعد الشمس عنه".³⁵ كما أن توزيع المعمور من الأرض وفق نظرية الأقاليم السبعة أفضى إلى حل معضلة جغرافية/دينية، وهي موضوعة بعض الأقوام المذكورين في القرآن الكريم أو

الشخصيات البارزة المذكورة فيه. حيث ساد الاعتقاد أنّ يأجوج ومأجوج يسكنون في الأصقاع الشماليّة. بالإضافة إلى موضوعة شخصيات الأنبياء دائما في الإقليم المعتدل وربطهم بأهم المنجزات والأبنية المعماريّة. يقول الغرناطي في هذا الشأن: "ومن بناء مصر أيضا الأهرام التي بأعمال مصر وهي أهرام كثيرة [...] ويقال: إنّ هرمس المثلث بالحكمة وهو الذي تسميه العبرانيون أخنخ وهو إدريس عليه السّلام استدل من أحوال الكواكب على كون الطّوفان، فأمر ببناء الأهرام...³⁶. كما تقتزن الحدود القصوى للعالم بجزر أسطوريّة (جزر الخالدات، جزائر السّعادة...)". "وإنّ حدّ المغرب من حدود الجزائر الخالدات المسماة جزائر السّعادة. وهن واغلات في البحر الأخضر المحيط المغربي المسمى أوقيانوس عشر درجات...³⁷. وذلك على خلاف أغلب الرّحالة والجغرافيين الذين حددوا موقع هذه الجزر (الخالّدات أو السّعادة) إلى الشرق باعتبارها الحد النّهائي للعالم من جهة الشرق. وبهذا فقد شكلت هذه المصطلحات الجغرافيّة التي نهلت من الجغرافيّة الرياضيّة والفلكيّة حاضنا خصبا لاشتغال المخيال العربي القديم في تصور جغرافيّة العالم وحضاراته والأوضاع المدنيّة والعقائديّة لقاطنيه، خاصّة عندما يتعلق الأمر بالفضاءات الواقعة في الأقاليم المجهولة "المظلمة"، كالإقليم الممتد شمالا في فيافي الثلج، أو الممتد جنوبا خلف خط الاستواء، حيث ساد الاعتقاد بغياب المعمورة، وهو ما انعكس على قيم الحكم على الآخر وأدى إلى تشكّل النّظام القيمي الذي كان سائدا في القرون الوسطى العربيّة، والذي استخدم خاصّة للحكم على الشّعوب الخارجة عن نطاق الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

3. خاتمة: لاحظنا من خلال هذا المقال كيف أفرزت العلوم الجغرافيّة العربيّة القديمة مجموعة من المقولات والمصطلحات والنّظريات الجغرافيّة ذات طابع علمي تحولت مع تعاقب أجيال الجغرافيين والرّحالة إلى تيمات وقيم بنيويّة وأسلوبية شيدت نظام الكتابة في أدب الرّحلة العربي القديم. وتكمن الفائدة الكبرى لهذه المصطلحات والمقولات، في نجاعتها الإجرائيّة باعتبارها حفريات معرفيّة يمكن استخدامها لأجل فحص الأنظمة الخفيّة والأنساق المضمرّة في حفريات التّاريخ العربي القديم، والكشف عن مسالك تاريخيّة لم يستطع التّاريخ (خاصّة الرّسمي منه) أن يطوقها لاعتبارات

قومية أو دينية أو لافتقاره للإجراءات الفعالة لمتابعة أو التعامل مع المرونة والإضمار الكبيرين للحقائق التاريخية، خاصة لما يتعلق الأمر بالهلامية والمراوغة التي تتميز بها خطابات الرحلة العربية القديمة.

الهوامش:

1. عبد الحميد الشلقاني. رواية اللغة. دار المعارف بمصر. (ط ؟) 1971. ص 109
2. كراتشكوفسكي. أغناطيوس يوليانونوفتش. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. تر: صلاح الدين عثمان هاشم. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. 1963. ص 253.
3. نفسه. ص 24.
4. عبد الفتاح محمد وهيب. جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع (من الأدب الجغرافي في التراث العربي). مركز الدلتا للطباعة. الإسكندرية. 1995. ص 13.
5. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرّومي البغدادي. معجم البلدان. دار صادر. بيروت 1977. المجلد 1. ص 15.
6. زكريا بن محمد بن محمود القزويني. آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر. لبنان. ط3. 2011. ص 191.
7. نفسه. ص 473.
8. عبد الحميد الشلقاني. رواية اللغة. ص 102.
9. حسن نافعة. كليفوردي بوزورت. تراث الإسلام. ج 2. ص 09.
10. كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ص 406.
11. عبد الحميد الشلقاني. رواية اللغة. ص 132.
12. نفسه. ص 133.
13. علي سامي النشار. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. دار المعارف. القاهرة. ط 9 (سنة ؟). ج 1. ص 30.
14. ياقوت الحموي. معجم البلدان ص 11.
15. نفسه. ص 09.
16. كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ص 126.
17. نفسه. ص 167.
18. هناك محاولة معاصرة في هذا الشأن. أنظر: شوقي أبو خليل. أطلس الحديث النبوي الشريف. من الكتب الصحاح الستة (أقوام وأماكن). دار الفكر. دمشق. ط 4. 2005. وفي السياق نفسه. للمؤلف أيضا: أطلس القرآن (أماكن. أقوام. أعلام) دار الفكر. دمشق. ط 2. 2003.
19. أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (اليقوي). كتاب البلدان. دار أحياء التراث العربي. لبنان. ط 1. 1988. ص 07.
20. كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ص 18.

21. عبد الفتاح محمد وهيبه. جغرافية المسعودي. ص 13.
22. نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب. الشركة العلمية للكتاب. لبنان. 1987. ص 17.
23. كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ص 23.
24. عبد الفتاح محمد وهيبه. جغرافية المسعودي. ص 13.
25. نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب. ص 11.
26. نفسه. ص 11.
27. الزيجات: مفرد زيج وزيجة. أصلها من الفارسية "زيك" ويقصد به السدى الذي تتسج فيه اللحمه. ثم أطلق على الجداول العددية (الفلكية) لمشابهة خطوطها الرأسية لخيوط لحمه السدى. ينظر حول هذا الموضوع: كراتشكوفسكي. ص 75.
28. نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب. ص 12.
29. نفسه. ص 19.
30. كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ص 99.
31. نفسه. ص 86.
32. أبو القاسم بن حوقل النصيبى. صورة الأرض. دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر. لبنان. 1996. ص 10.
33. كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ص 23.
34. أصل نظرية "قبة الأرض" أو "الأرين" هندي. وأصلها "أجين" مكان بالهند الوسطى أين يقوم مرصد فلكي مشهود. ثم تحولت باللفظ العربي إلى "أرين". ثم سقط حرف الزاي واستقرت مكانه الزاء نتيجة لتشاكل الحروف في العربية وغياب نظام الرقش الذي أضيف في وقت لاحق.
35. شمس الدين أبي عبد الله بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. دار إحياء التراث العربي. لبنان. ط 2. 1998. ص 32-33.
36. أبو حامد الغرناطي. تحفة الألباب ونخبة الإعجاب. تح: قاسم وهب. دار السويدي للنشر والتوزيع. أبو ظبي. ط 1. 2003. ص 65.
37. شمس الدين أبي عبد الله بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. دار إحياء التراث العربي. لبنان. ط 2. 1998. ص 28.